الفصل الأول

القرآن هادٍ للعقل

يحلو لكثير من الناس أن يتحدث عن موقف القرآن من العقل، ويذكر فى بحثه أو محاضرته أن القرآن هو كتاب العقل ، وأنه بأكمله : دعوة صارخة لتحرير العقل من عقاله ، وأنه يدعونا - بعبارات تختلف فى أسلوبها وتتَّحد فى معناها - إلى استعمال العقل ووزن كل شىء بميزانه ، وأنه يترك لنا الحرية فى أن نعتقد ما يرشد إليه عقلنا ، وأن نتَّبع السبيل الذى ينيره منطقنا أو يهدينا إليه تفكيرنا.

وهم فى هذا يؤمنون - فى إخلاص - أنهم يخدمون الدين بموقفهم ، ويؤيدون القرآن بإيمانهم ، ويعتبرون ذلك نسقاً فريداً فى المذاهب ونمطاً من سعة الأفق لا تصل إلى سموِّه العقائد السابقة أو المعاصرة .

وهم لا يلقون القول ، دون أن يستندوا فى آرائهم على الآيات القرآنية نفسها، وعلى موقف المسلمين أنفسهم - فى تاريخهم الطويل - من الفكر الإنسانى، ومن المفكرين الذين اتَّبعوا منطقهم وتفكيرهم الخاص .

ومن الآيات التى يستدلون بها - والتى يتقدمون بها كشاهد - الآيات الكريمة التالية :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١).

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ

(١) سورة البقرة : ١٧٠.

لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١).

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(٢) .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣).

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لاتُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِاتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾(٤).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٥).

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا

(١) سورة الأعراف : ١٧٩.
(٢) سورة الأعراف : ١٨٥.
(٣) سورة الكهف : ٢٩.
(٤) سورة المؤمنون : ٦٤- ٧١.
(٥) سورة لقمان : ٢١.

وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١) .

هذه الآيات الكريمة ، بل والقرآن فى جملته ، والأحاديث الشريفة فى جملتها ، وتاريخ الإسلام ... إن كل ذلك يدل - حسبما يرون - على أن الإسلام دين العقل .

وإذا تساءلنا الآن عما يعنون بقولهم « إنه دين العقل » ؟ أجابوا بأنه يحتكم إلى العقل .

ويرون بذلك أنه يُحكِّم العقل فى المسائل والمبادئ والقواعد.

وينتهى ذلك - لا مناص - بأن يكون العقل هو القائد وليس الدين ، وذلك قلب للأوضاع وانحراف عن الصراط المستقيم ! !

أما الصراط المستقيم - فيما يتعلق بصلة الدين بالعقل - فهو :

١ - **أولاً** : جاء الدين هادياً للعقل فى مسائل معينة : هى أولاً ، ما وراء الطبيعة ، أى : العقائد الخاصة بالله سبحانه ، وبرسله صلَّى الله عليهم وسلَّم ، وباليوم الآخر ، وبالغيب الإلهى على وجه العموم.

وثانياً : فى مسائل الأخلاق ، أى: الخير والفضيلة ، وما ينبغى أن يكون عليه السلوك الإنسانى ليكون الشخص صالحاً .

وثالثاً : فى مسائل التشريع الذى ينتظم به المجتمع وتسعد به الإنسانية .

وجاء الدين هادياً للعقل فى هذه المسائل بالذات ؛ لأن العقل إذا بحث فيها مستقلاً بنفسه فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع .

ومعنى ذلك : أنه لو تُرِكَ الناس وعقولهم فى هذه المسائل فإنهم يختلفون ويتفرقون فرقاً عديدة، ويتنازعون، ولا ينتهى الأمر بهم إلى الوحدة والانسجام. ولا إلى الهدوء والطمأنينة .

---

(١) سورة الزخرف : ١٩ - ٢٤ .

٢ـ وجاء القرآن : يفهمه العقل فى المُحْكَم فيه ، ولا يناقض العقل فى المتشابه منه ؛ ذلك أن القرآن :

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(١).

وقد أراد الإسلام من المسلم أن يستمسك بالمُحكمات استمساكاً تامًّا ، وأن يعتصم بها اعتصاماً كاملاً :

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢).

وأن يسلِّم الأمر للَّه فى المتشابه ، اللهم إلا إذا فتح اللَّه عليه بوساطة الإلهام الإلهى عن شىء من أسرار هذا المتشابه الذى لا يناقض العقل ولا يتعارض مع مبادئه .

٣ - وجاء القرآن حاسماً لا يتردد ولا يقرُّ التردد ، ولا يتشكك ولا يقرُّ التشكك؛ وكان الأمر كذلك لأنه جاء بالحق : الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الحق المعصوم ، لقد جاء بالحق العاقل المعقول ، الحق المتزن والموزون ، لقد جاء بالحق الذى كل ما عداه باطل ، ولقد تركَّز الحق فى مسائل الدين بين دفَّتى هذا الكتاب المُوحَى، وفيما أخبر به الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - شرحاً له وتفسيراً وإبانة . وعلى من أسلم أن يتَّبع هذه المبادئ أو هذا الحق اتباعاً لا تردد فيه ولا انحراف عنه .

٤- وجاء القرآن لا يستشير الإنسان فى شىء، وتعالى اللَّه عن أن يستشير المخلوق، وتعالى الرَّبُّ عن أن يستشير المربوب ، وتعالى العليم الحكيم عن أن يحتكم إلى البشر أو يحكِّمهم فيما أنزله إليهم هداية وتربية.

---

(١) سورة آل عمران : ٧.

(٢) سورة آل عمران : ١٠١.

هذا هو موقف الدين من العقل : وهو موقف يقرنا عليه كل من له شعور ديني سليم ، وهو موقف ترشدنا إليه الآيات السابقة نفسها. ونأخذ منها - كمثال عام - قوله تعالى لرسوله ﷺ :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾(١) .

فى هذه الآية الكريمة : يأمر اللَّه سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يخبر بأن ماأتى به إنما هو الحق ، وإذا كان هو الحق فإن كل ما عداه باطل ، وما من ريب فى أن كل شخص يُعمل فكره ويُجيل نظره ويتأمل فى هذا الحق ؛ فإنه لا محالة - إذا أخلص - سينتهى بالاعتراف والإقرار والإيمان .

أما من أضرب عن ذلك صفحاً واتَّبع الآباء والأسلاف ، لمجرد أنهم آباء وأسلاف، فإن مثله كمثل البهيمة التى تسير وراء أصحابها لمجرد أنهم يقودونها، وتتبعهم لأنهم يسيرون أمامها .

ومن شاء من الناس أن يؤمن بهذا الحق الذى ليس بعده إلا الباطل فليؤمنْ به وليتَّبع الهدى الهادى ، ومن شاء أن يكفر بالحق ويتَّبع الباطل مُعرِضاً عن الحق فله ذلك ، ولكن ليعلمْ أن اللَّه سبحانه : أعدَّ لمن لم يتَّبع الإيمان :

﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٢) .

والقرآن دين العقل بهذه المعانى، فهو :

هادٍ للعقل ، ومرشدٌ له ، وقائدٌ .

وهو مبادئ يفهمها العقل فى سهولة ويسر .

وهو لا يناقض العقل .

---

(١) ، (٢) سورة الكهف : ٢٩.

وعلى العقل أن يلجأ إليه فى كل ما أتى به .

٥- على أن القرآن - فى حقيقة الأمر - نزل ليقود الإنسانية نحو الكمال الروحى ، والإنسانُ إنسانٌ بالجانب الروحى منه ، وكلما سما الإنسان روحيًّا كان أعلى فى معنى الإنسانية .

والمعنى الروحى ، ووسيلة المعنى الروحى : لا سبيل إلى تحديدهما من الإنسان نفسه، وإنما تحديدهما موكول إلى الله سبحانه: ذلك أن السمو الروحى قُرْبٌ من اللَّه تعالى ، وإذا لم يكن قرباً من الله فليس بسموٍّ روحىٍّ . والقرب من اللَّه ، أو بتعبير أدق ، تقريب اللَّه للإنسان ، إنما مرجعه: هدفاً ووسيلة ، هو اللَّه نفسه .

وكل من حاول أن يتخذ طريقاً آخر فإنما يجرى وراء سراب .

والغاية والوسيلة : حدَّدهما الله فى كتابه الكريم .. إنه حدَّدهما بالأسلوب الإلهى نفسه ، أى أن التعبير عنهما - التعبير نفسه - إنما كان من الله سبحانه ، ومن فضل الله على المسلمين، وعلى اللغة العربية أن كانت وسيلة فهم الإسلام : هى التعبير الإلهى بما فيه من دقة كاملة ، وجمال معجز ، وكمال غير منقوص .

وما دام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع ، أو - بتعبير أدق - السجود .

وهو ليس سجوداً تعسفيًّا أو تحكميًّا ، وإنما هو سجود مصدره الإيمان اليقينى بأن هذا من عند الله ، وما دام من عند الله ، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، ولأنه أُحكمت آياته ، ثم فُصِّلت من لَدُن حكيم خبير.

من ذلك نتبين أن الدين هادٍ للعقل ، وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحى الإلهى .

ونعود من جديد إلى المسألة التى بدأنا بها الحديث ، نعود من جديد إلى مسألة

القرآن والعقل ، سيقولون : ولكن القرآن يطالب دائماً بالتفكُّر والتدبُّر :

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ (١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(٢).

وينعى على المشركين التقليد ويتهكم بهم فى اتِّباعهم آباءهم فيتساءل:

﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

وكثيراً ما نجد الآيات تُختم بـ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ، ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ ، ﴿أفلا تبصرون ﴾ .. وكل ذلك يدل على أن القرآن يدفع الناس إلى استعمال العقل .

والواقع أن القرآن لا يستشير الإنسان فى أية قضية من القضايا التى جاء بها الوحى ، ولا يحتكم الوحى إلى الإنسان باعتباره حَكَماً، فى أى مبدأ من مبادئه ، ولا يطلب منه مشورة فى أية قاعدة من القواعد التى شرعها ، بل هذه الأوهام لا تدور بِخَلَدِ المتديِّن قَطُّ.

ذلك أن الوحى نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم ، ونزل يبلِّغ أن هذه الرسالة صدقٌ كلها ، حقٌّ جميعها ، ليس فيها مبدأ مشكوك فيه، ولا قضية تحتمل الصدق والكذب ، وليس فيها جملة زائدة ، ولا كلمة ليست فى موضعها، ولا حرف كان يحسن ألاَّ يوجد ، كلاَّ إنها الحق الخالص ، من اتَّبعها فقد اهتدى، ومن حاد عنها فقد انحرف ، ومن ابتغى الهدى فى غيرها أضلَّه الله ، ومن تركها من جبَّار قصمه الله ، لأنها صراط الله المستقيم ونوره اللألاء .

وكل ما ذكره من التفكُّر والنظر والتدبُّر إنما أراد به الاعتبار ، وأراد أن يقول: تفكَّروا لتروا أن ذلك هو الحق ، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير ، أما إذا رأيتم غير ذلك فإنما العيب فى بصركم أو فى بصيرتكم . إذا رأيتم غير ذلك فإن الفساد

---

(١) سورة الحشر : ٢.

(٢) سورة ق : ٣٧ .

(٣) سورة البقرة : ١٧٠.

فى عقولكم وفى تفكيركم ، وإذا رأيتم غير ذلك فاعلموا أن فطرتكم فسدت لانحرافكم وأن قلوبكم ران عليها الإثم فضلّت ، وأن عقولكم قد صدئت فأصبحت لا ترى الحق حقًا ولا الخير خيراً، وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شرًّا والشر خيراً، وأصبح أصحابها كالأنعام ، بل هم أضلُّ سبيلاً ، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم .

إن الله - فى عظمته وجلاله ، سبحانه- لا يلقى برسالته ليبحثها الإنسان ويبدى فيها رأيه نفياً أو إثباتاً ، سلباً أو إيجاباً ، كلاَّ ، بل كل من توهَّم ذلك فإنه لا يقدِّر الله حق قدره وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ، وإنما ألقاها سبحانه لِتُتَّبَعَ.. لتتبع فى خضوع وسجود ، ولتتبع دون حرج يحيك فى الصدر ، أو شَكٍّ يجول فى النفس :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١).

وكل من وجد فى نفسه حرجاً من قضايا الدين ، وكل من لم يسلِّم تسليماً كاملاً مطلقاً تامًّا ، كل من كان كذلك فإنه يحسن به أن يرجع إلى إيمانه ليصححه ، وليتوب إلى الله توبة نصوحاً ، وباب الله مفتوح للتائبين ، آناء الليل وأطراف النهار ، وفى كل لحظة .

كان سلفنا الصالح ينزعون هذه النزعة : نزعة الخضوع المطلق لما جاء به الرسول ﷺ ، لقد كانوا يسجدون للنص ، يسجدون له بجوارحهم وقلوبهم ، وأرواحهم وعقولهم. لقد كانوا يُخضعون عقولهم للنص ، ويجعلونه القائد والحَكَمَ المهيمن .. وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم فى النص إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخُّل البشرى فى النص ، وكانوا يعرفون أن الوحى إنما جاء هادياً للعقل وقائداً له فى الأمور التى لا يتأتى للعقل أن يلج

(١) سورة النساء : ٦٥ .

ميادينها ، أو يقتحم حماها ، أو يدلى فيها برأى يتفق عليه الناس . وهذه الميادين هى الدين. والدين ليس رأياً بشريًا ، إنه تنزيل من حكيم حميد. وكل موقف من الشخصية البشرية تجاه النص - سوى موقف السجود له - إنما هو موقف لتبديل الدين من أن يكون إلهيًا إلى أن يكون بشريًا ، ولو كان يستقيم الأمر على ذلك لما كان هناك من حاجة إلى الدين.

يروى أبو داود والدارقطنى عن سيدنا على - رضى الله عنه - قال :

« لو كان الدِّين بالرأى لكان أسفلُ الخُفِّ أَوْلَى بالمسح من أعلاه ، لقد رأيتُ رسولَ الله يمسحُ على ظاهر خُفَّيه » .

إن الدين ليس رأياً ، وليس بالرأى ، وانظر إلى الحديث التالى : إنه معبِّر أقوى ما يكون التعبير ، دقيق فى مغزاه دقة بالغة :

عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال : قال النبى ﷺ :

« إذا أتيتَ مضجعك ، فتَوضَّأْ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجعْ على شقك الأيمن ثم قل : اللهمَّ إنى أسلمتُ نفسى إليك ، ووجَّهتُ وجهى إليك ، وفوَّضتُ أمرى إليك ، وألجأتُ ظهرى إليك ، رغبةً ورهبةً إليك ، لا ملجأ ولا منجاً منك إلا إليك ، آمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ ، ونبيك الذى أرسلتَ . فإنْ متَّ فى ليلتك ، فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به . فردَّدتها على النبى ﷺ ، فلما بلغتُ (آمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ) قلتُ : ورسولك. قال : لا . ونبيك الذى أرسلتَ» [رواه الستة] .

وزاد البخارى والترمذى: « فإن متَّ فى ليلتك متَّ على الفطرة، وإن أصبحتَ أصبتَ خيراً » .

إن الصحابى الجليل البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال: «رسولك » بدل أن يقول : « نبيك » . وكلمة «رسول » تتضمن معنى النبوة ، فهى -إذن - فيها المعنى وزيادة ، وبحسب منطقنا وبحسب عقلنا تكون صالحة .

ولكننا لا نرى بعقلنا ومنطقنا إلا الشكل والظاهر . أما بواطن الأمور ، أما

أسرار الكلمات ، أما حكمة الأوضاع المحددة ، أما اكتناه خفايا التقديرات الإلهية ، إن كل ذلك - إذا لم يكشف الله عنه ، أو عن بعضه - فإننا لا نصل إليه بمنطق البشر . ولقد أخطأ البراء بن عازب - رضى الله عنه - فى استبدال كلمة «رسول» بكلمة « نبى » وأخطأنا معه حينما قَدَّرنا بعقولنا أن هذا البدل يصح.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[1] .

واكتناه سر هذا القدر اكتناهاً تامًّا لا يصل إليه الإنسان ، بل لا تصل إليه الملائكة : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[2] .

إن العلم الصحيح الصادق فى عالم الهداية الإلهية والتربية الربانية إنما هو من الله سبحانه، وكل ابتعاد عنه أو خروج عليه أو تغيير فيه : إنما هو ضلال .

وما من شك فى أن الإنسان منذ أن وُجد على ظهر الأرض يحاول أن ينزع نزعة بشرية بحتة ويتصرف فى الوحى الإلهى نقصاً وزيادة ، وبتراً وإضافة ، وتغييراً وتبديلاً ، ويحاول أن يقيم كل ذلك على قواعد يزعمها صحيحة ..

فيقول مثلاً : إن الحكمة فى تحريم شرب الخمر إنما هى المفاسد التى تنشأ من الشخص الشارب ، فإذا انتفت تلك المفاسد فلا مانع من شرب الخمر .

والتكاليف الدينية : إنما جاءت لإصلاح الضمير ، فإذا كان الضمير صالحاً فلا لزوم للتكاليف الدينية .

وأعمال العبادة : إنما هدفها القرب من الله ، فإذا حصل القرب فلا حاجة إليها ..

وهكذا يخرج الإنسان بأهوائه - ولا نقول بعقله ؛ لأن كل ذلك أهواء يصورها الشيطان منطقاً معقولاً - عن الدين ، كما خرج إبليس قديماً - بأهوائه التى تمثَّلت لذهنه منطقاً- عن الدين .

---

(١) سورة القمر : ٤٩ .

(٢) سورة البقرة : ٣١، ٣٢ .

والإمام الغزالى - رضى الله عنه - يمثِّل لذلك بمثال معبِّر فيذكر قصة رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة ، وأكَّد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، ألاَّ يُخلى هذا القصر من هذا الحشيش طوال عمره .

وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه، فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين، وطلب من البر والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة.

فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال : لا شك أن والدى ما أوصانى بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته ؛ والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق علىَّ المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ، ظهر من بعض ثقوب القصر حية هائلة ، وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك ، فتنبَّه حيث لم ينفعه التنبُّه : أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان:

أحدهما : انتفاع الولد برائحته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثانى : اندفاع الحيات المهلكات برائحته ، وذلك مما قصر عن دَرْكِهِ بصيرة الولد ؛ فاغترَّ الولد بما عنده من العلم وظن أنه لا سِرَّ وراء معلومه ومعقوله ، كما قال تعالى :

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾(١) .

وقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾(٢).

---

(١) سورة النجم : ٣٠ .

(٢) سورة غافر : ٨٣ .

والمغرور من اغترَّ بعقله فظن أن ما هو مُنتفٍ فى علمه فهو مُنتفٍ فى نفسه . ا.هـ .

وما من شك فى أن آراء المِلَل وكل ما فيها من الأوضاع ليس سبيلها أن يُمتحن بالآراء والروية والعقول الإنسية [1] ، لأنها أرفع رتبة منها ، إذ كانت مأخوذة من وحى إلهى ، لأن فيها أسراراً إلهية تضعف عن إدراكها العقول الإنسية ولا تبلغها .

وأيضاً : فإن الإنسان إنما سبيله أن تفيده المِلَل بالوحى ما شأنه ألاَّ يدركه بعقله وما يخور عقله عنه وإلا فلا معنى للوحى ولا فائدة إذا كان إنما يفيد الإنسان ما كان يعلمه ، وما يمكن إذا تأمله أن يدركه بعقله . ولو كان كذلك لوُكِلَ الناسُ إلى عقولهم ، ولما كانت بهم حاجة إلى نبوَّة ولا إلى وحى ، لكن لم يفعل بهم ذلك ، فلذلك ينبغى أن يكون ما تفيده المِلَل من العلوم ما ليس فى طاقة عقولنا إدراكه ، ثم ليس هذا فقط ، بل ما تستنكره عقول بعض منَّا فإن ماتستنكره بعض العقول وتستبشعه بعض الأوهام قد لا يكون فى واقع الأمر مُنكَراً ولا بشعاً ..

فإن الإنسان وإن بلغ نهاية الكمال فى الإنسانية ! فإن منزلته عند ذوى العقول الإلهية - العقول التى استنارت بالوحى وسَمَتْ بالمبادئ الإلهية - منزلة الصبىِّ والحَدَث والغَمْر عند الإنسان الكامل .

وكما أن كثيراً من الصبيان والأغمار يستنكرون بعقولهم أشياء كثيرة مما ليست فى الحقيقة منكرة ولا غير ممكنة ، ويقع لهؤلاء أنها غير ممكنة ؛ فكذلك منزلة من هو فى نهاية كمال العقل الإنسىّ عند العقول الإلهية التى أفاض اللهُ عليها من نوره وغمرها بإلهاماته ، وكما أن الإنسان من قبل أن يتأدَّب ويتحنَّك يستنكر أشياء كثيرة ويستبشعها، ويخيل إليه فيها أنها محالة . فإذا تأدَّب بالعلوم واحتنك

(١) انظر : كتاب « إحصاء العلوم » للفارابى .

بالتجارب زالت عنه تلك الظنون فيها ، وانقلبت الأشياء التى كانت عنده محالة؛ فصارت هى الواجبة، وصار عنده ما كان يتعجب منه قديماً ، فى حد ما يتعجب من ضده .

كذلك الإنسان الكامل الإنسانية ، لا يمتنع من أن يستنكر أشياء ويخيل إليه أنها غير ممكنة ، من غير أن تكون فى الحقيقة كذلك [1] .

ويشرح الشيخ الجليل أبو سليمان المنطقى كل ذلك ، فى دقة دقيقة ، وفى أسلوب جميل فيقول :

« إن الشريعة مأخوذة عن الله- عَزَّ وجَلَّ - بوساطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحى ، وباب المناجاة ، وشهادة الآيات ، وظهور المعجزات، وفى أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه ، والغوص فيه ، ولابد من التسليم المدعو إليه، والمنبَّه عليه . وهناك يسقط « لِمَ ؟ » ويبطل «كيف ؟» ويزول «هَلاَّ » وتذهب «لو ، وليت » فى الريح ! ..

ولو كان العقل يُكتفى به ، لم يكن للوحى فائدة ولا غَناء ..

على أن منازل الناس متفاوتة فى العقل ، وأنصباءهم مختلفة فيه ، فلو كُنَّا نستغنى عن الوحى بالعقل ، فكيف كنا نصنع وليس العقل بأسره لواحد منَّا ؟ وإنما هو لجميع الناس .. ولو استقل إنسان واحد بعقله فى جميع حالاته ، فى دينه ودنياه ، لاستقل أيضاً بقوته فى جميع حاجاته ، فى دينه ودنياه ، ولكان وحده يفى بجميع الصناعات والمعارف ، وكان لا يحتاج إلى أحد من نوعه وجنسه . وهذا قول مردود ، ورأى مخذول ...» [2] .

يقول الشيخ الجليل أبو سليمان المنطقى : « إن منازل الناس متفاوتة فى العقل، وأنصباءهم مختلفة فيه » ، ومعنى ذلك أن هذا الذى يروق لشخص عقليًا ربما لا يروق لغيره عقليًا ، ويجب من أجل ذلك ألَّا يتدخل العقل فى

---

(١) انظر : كتاب « إحصاء العلوم» للفارابى .

(٢) انظر : كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » للقفطى .

الدين، وإلاَّ لَاختلف الناس باختلاف عقولهم وادَّعى كلٌّ أن ما هو عليه : إنما هو الحق ، وما عليه غيره هو الباطل .. ونتج عن ذلك: اتِّباع كلِّ أهواءه ..

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ (١) ، فتتفرق الأمة ، وتخرج على ما أحبه الله وأمر به :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (٢).

وإذا تساءلت الآن : ما هو - إذن - موقف العقل من الدين ، وموقف الدين من العقل ؟ فإننا نُجمل الموضوع فى النقط الآتية :

* نزل الدين هادياً للعقل فى جميع الأمور التى لو تُرِكَ العقل وشأنه فيها لَضَلَّ السبيل ، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة ، وهذه الأمور هى :

(ا) العقائد .

(ب) المبادئ الأخلاقية إجمالاً وتفصيلاً .

(جـ) التشريع فى قواعده العامة ، وفى بعض تفصيلاته ، وقواعده العامة التى تتضمن الجزئيات على مر الزمن ، وعلى اختلاف البيئات .

* أما الطبيعة والكون : من سمائه وأرضه، ومن جباله وبحاره ، ومن كواكبه وأقماره وشموسه ، أما المادة والطاقة ، أما أعماق البحار وآفاق السماء .. إن كل ذلك قد تركه الدين للإنسان يدرسه فى مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته ، وحَثَّهُ على أن يجول فى ذلك ما استطاع إليه سبيلاً ؛ حتى يكتشف سنن الله الكونية ، ونواميسه الطبيعية ، ويرى صُنع الله الذى أتقن كل شىء . ولم يحجر الدين على الإنسان فى هذا المجال .. اللهمَّ إلا الواجب الذى ينبغى أن يكون شعاره دائماً : وهو أن يكون هدفه - من كل ذلك - الخير .

والإسلام دين العقل بكل هذه المعانى التى ذكرناها .

* * *

(١) سورة الجاثية : ٢٣ .
(٢) سورة آل عمران : ١٠٣ .